

شهادة أو ترفيه (...). وكنا، واعين أو لاواعين، نجهل أن ما نسميه «الأدب» كان الحصيلة، لا السبب، في الوعي الثقافي لدى طبقة من الناس، خلال الثلاثة القرون الماضية، وأنّ الأدب الشعبي الحقيقي، يجب أن يتحرر من حياة ثقافية شعبية».

النظام السوقياتي، اقترب كثيراً من إيجاد حل تقني لهذه العملية. فالأدباء، الذين كان ستالين يسميهم «مهندسي الروح»، هم في احتكاك مباشر مع الجماهير، إما بواسطة الحزب الشيوعي، أو بواسطة المنظمات الثقافية، أو، فقط، بطريقة وجودهم بين الناس. من جهة أخرى، فالتوزيع الواسع، مؤمن، والكتاب موجود في كل مكان، في المصنع كما في المزرعة. وما يعيق النشر أحياناً، نقص الورق، لا التقصير في المبيع. ثم إن وفرة الاجتماعات (في النوادي)، والمناقشات، تستخلص رأياً أدبياً شعبياً ينعكس على الأدباء دون المرور بحاجز تجاري للناشر أو لصاحب المكتبة. لكنّ حاجزاً يبقى: الأيديولوجيا، حيث الإرشاد التوجيهي الذي يؤقلم الناس على المؤسسات لا المؤسسات على الناس. وإذا قلنا أن النظام السوقياتي وجد الحل التقني للعملية، فهو لم يجد لها الحل الإنساني، كما تدل على ذلك، الأزمات التي تهز أحياناً العالم الأدبي السوقياتي.

أخيراً، نجد أن الخلل في التوزيع مواز للخلل في الإنتاج. لكن الخللين، صورتان جزئيتان لمشكلة واحدة. فالحلول المؤسسية من نموذج «صندوق الأدب» في الإنتاج، أو من نموذج «المنظمة الثقافية للتوزيع» ليست سوى مخففات تقنية. والحل، إن كان من حلّ، ليس إلاّ على صعيد تصرف الجماعات الإنسانية إزاء الأدب، ومن هنا إزاء الاستهلاك.